

أدب الرحلات، وتمفصلات الفضاء الجغرافي.

.Literature of excursions, geographic space articulations

د/ ناصر بعداش .

المركز الجامعي ميله، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي

البريد الإلكتروني: n.baadache@centre-univ-mila.dz

الهاتف: 0662081469

تاريخ النشر: 2019/12/25	تاريخ القبول: 2019/11/28	تاريخ الإرسال: 2019/10/17
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تحاول هذه الورقة البحثية تتبع حركة الفضاء الجغرافي في أحد أنواع الآداب المعروفة بأدب الرحلات، ذلك لأن الرحلة نص ثري يعتمد آلية وصف المشاهد والأماكن الجغرافية التي تقع عليها عين الإنسان الذي يمارس الرحلة ويسعى مسافرا في الأرض، ويتنقل بين الأقطار الضاربة في العمق واكتشاف أماكنها وفضائها المتعددة، وبالتالي فالرحلة تحتوي على مسرح تقع فيه الأحداث و تتصارع فيه الأفكار والشخصيات، حيث لا مجال للانغلاقية، إنه الفضاء أو المكان الذي يؤلف إطارا تتفاعل معه بقية المكونات البنائية الأخرى، وبذلك يكون للمكان الدور الكبير في أداء العديد من الوظائف داخل النصوص الأدبية بما فيها أدب الرحلات، ومنه:

- ما أدب الرحلات ؟ وما موقعه بين النصوص الأدبية ؟
- كيف كانت تمفصلات الفضاء في الرحلات العربية ؟ وكيف نظر الرحالة إلى المكان المكتشف الجديد؟
- هل شكل الفضاء الجغرافي تمفصلات جديدة في هذا النوع من الآداب ؟

Abstract:

This paper attempts to trace the movement of the geographical space in one of the types of literature known as the literature of flights, because the voyage is a rich text that depends on the mechanism of describing the scenes and geographical places on which the eye of the person who is practicing the journey and seeks the traveler in the land, and travel between the countries striking in

depth and discover their places and multiple spaces , It is the space or place that forms a framework that interacts with the rest of the other structural components. Thus, the place has a great role in the performance of many functions within the literary texts, including the literature of the journeys , And from it:

- What do you know about trips? What is its place among the literary texts?
- How were the spaceships in Arab flights? And how did the traveler look at the new place of discovery?
- Is the form of geographical space new joints in this type of literature?

مقدمة :

يعتبر أدب الرحلات من الفنون السردية الثرية التي تعتمد آلية وصف المشاهد التي تلتقطها عين الإنسان الذي أخذ على عاتقه السفر والضرب في الأرض، إذ تسمح للرحالة الذي سنحت له فرصة الانسياب بين ربوع الأرض ومناطقها الطبيعية الشاسعة، الممتدة بين السهول المنبسطة والجبال العالية والأنهار الجارية، وكذا مناطق العمران الزاهية من البلدان البعيدة التي تنوعت بناياتها واختلفت من منطقة لآخرى، بإعادة بعث مشاهداته وإعطائها أبعادا جديدة تنطق صورا تفوح بالجمال، وبالتالي نجد يُسَخَّرُ جل حواسه لتعمل بكل طاقاتها، من دقة الملاحظة، وتصوير المشاهد والتحسس والتذوق ، لتنعكس في الأخير محصلة مشاهداته في مدونات أدبية تصور المشهد الإنساني والعمراني والطبيعي في حدود زمكانية الرحلة .

1- مفهوم أدب الرحلات:

يعتبر أدب الرحلات من الفنون الأدبية التي لها علاقة كبيرة بحواس الإنسان، وبالتالي فالعين والأذن من بين الحواس التي من خلالها يتحقق هذا الفن، لان العين تقع دائما على المشاهد التي يراها الإنسان لأول مرة، والأذن لها كذلك العلاقة نفسها؛ لأنها تسمع عن الآخرين رواياتهم لمشاهد كثيرة رأوها رأي العين، ومن هنا فكا من شاهد عن طريق رحلته أو سمع خلال الرحلة نفسها؛ يتحقق له الكتابة في هذا الفن من خلال الأعضاء الحواسية التي بها يستطيع أن يشاهد ويسمع ويلمس، مسجلا ذلك بكل موضوعية " داعما ذلك بوجهة نظره و رؤيته الذاتية التي تتمخض عن موقفه الشخصي الذاتي، وحساسية تأثره وتفاعله مع الأحداث والمشاهدات، ولكن بشرط أن تتمركز بؤرة الوصف و السرد خارج الذات حتى لا تتحول إلى شكل من أشكال السيرة الذاتية"¹، وبالتالي فالمواقف التي يمر بها الرحالة تكون عاملا أساسيا للكتابة بكل موضوعية في هذا الفن عن طريق اللغة.

وتمتاز اللغة إذن في هذا النوع من الأدب بأسلوب قصصي جذاب، لأن طبيعة الإنسان جبلت على حب الغريب البعيد عن العين، وارتباط حباثل المشاهدات الموصوفة والمسجلة زمنيا بزمان الرحلة وظروفها، لذلك فالرحلة " نص يتأسس بناؤه بواسطة المكان الذي يتم تقديمه بوسائط عديدة، جعلت من الرحلة فنا من الفنون المكانية، تأخذ بعدها الفضائي عند ارتباطها بالمستوى



الزماني، زمن الرحلة (النص)، وزمن الرحالة.²، وبذلك يغدو الشكل في الرحلة والنص الأدبي معا " شكلا فضائيا استنادا إلى مكون المكان الذي يصبح مكونا سرديا مركزيا ، بالرغم من ارتباطه بالوصف، أي يصبح فضاء "³، وبالتالي فالعلاقة بين أدب الرحلة والفضاء علاقة جد وثيقة، لأنه مهما حاول راوي الأحداث الابتعاد عن هذا العنصر فإنه يقع فيه لا محالة، لأنه في كل مرة يصطدم بهذا المكون خلال عملية سرد الأحداث.

تحتوي الرحلة في أغلب الأحيان على مسرح يسمح للأحداث أن تقع فيه، وللأفكار والشخصيات أن تتصارع، إنه الفضاء أو المكان الذي يؤلف حيزا تتناغم معه المكونات البنائية الأخرى، وبالتالي فللمكان أدوار ووظائف عديدة في النصوص السردية، " لعل أبرزها في نظر النقاد هي قابليته لاستيعاب الزمن مكثفا فيه "⁴، وفي وصف المكان الروائي يبرز ما يسمى بالفضاء الذي يعني في مفهومه الفني: " مجموع الأمكنة التي تظهر على امتداد بنية الرواية مكونة بذلك فضاءها الواسع الشامل "⁵، ومن ثم فإن المكان هو الإطار المحدد لخصوصية اللحظة المعالجة، وليس بمقدور الحدث أن يكون في لا مكان، بل بالعكس من ذلك فهو في مكان محدد مسبقا، والمتأمل في البنية المكانية لنص الرحلة المغاربية يجده تحققا لأنساق مكانية أكثر عمومية، " قد تكون هذه الأنساق إما نسقا مجملا لأعمال كاتب معين، وإما نسقا من تيار من التيارات الأدبية، وإما نسقا من التفاعلات الإقليمية، وتتمثل دائما هذه البنية صيغة من صيغ النسق العام، غير أن المكانية الخاصة تدخل أيضا بطريقة محددة في صراع مع هذه الصيغة من خلال تحطيم أوتوماتية لغتها "⁶.

إنه إذا كان المكان في أدب الرحلة - أو في غيرها- مساحة شاسعة ذات أبعاد هندسية أو طبوغرافية تتحكم في قبولتها المقاييس والحجوم، فإنه لا يقتصر على عده أبعادا هندسية وحجوما، ولكنه فضلا عن ذلك "نظام من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني المجرد... "⁷، فالعقل في أدب الرحلات يلعب دورا كبيرا في تصوير الأمكنة والإحاطة بالآزمنة وإعادة صياغتها في قالب جذاب يسحر لب القارئ، لأن إعادة البناء أسهل على الإنسان من البناء، لذلك فكل رحالة له من المواهب الذهنية التي تمكنه من الإحاطة بكل الأشياء التي وقعت عليها عينه خلال زمن الرحلة، وعن العودة منها يقوم بعملية استذكار لها، ثم إعادة صياغتها بالطريقة التي يشاء، وبالتالي فإن خطاب الرحلة المغاربية في هذا السياق قائم على متابعة حركة الرحالة داخل الفضاء، " بخطها المزدوج، خط السارد من جهة، وخط المكان (الفضاء) المسرود من جهة ثانية "⁸، ومن ثم فبين الفضاء والمكان طريق تقف فاصلا جوهريا بينهما " فكم مرّ في الطريق ذاته العديد من الرحالة دون أن يحققوا المستوى الفضائي بحكم اقتصرهم على المسالك والممالك، و ترسمهم لأثار السلف، والحفاظ على المحددات الثابتة على سطح الخريطة التي منعت من منح المكان وظيفته في النص "⁹.

إن الرحلة قديمة قدم حياة الإنسان، وبالتالي فهي مرتبطة بغريزة حب التطلع إلى كل ما بُعد عن العين، ولحق الأذن شيء منه، فكانت الرحلة والاستكشاف حيلة الإنسان الأولى، لأنه بما يخرج من روتين العالم الذي كان يحياه والطبيعة الأولى بتعدد أماكنها التي ترى فيها، فالبشرية إذن مجبولة على حب التطلع للأماكن التي تراها، وبذلك بقت على سيرة الأسلاف تميل إلى حب الارتحال رغم المشاق، ساعية بذلك إلى فرض الهوية والشعور بالوجود داخل هذا الفضاء الرحب الذي تناثرت جوانبه وابتعدت مناحيه، وبتعدد الأمكنة وتنوع التضاريس أصبحت الرحلة خادمة للجغرافيا لأنها تساعد على التعرف على الفضاءات والأمكنة المختلفة " ثم رشدت البشر إلى توسيع دائرة الجغرافية على الأرض في كل مكان "¹⁰.

2- الجغرافيا و فن الرحلة:

إن المتتبع لرحلة هذا الفن عبر التاريخ يجد مصطلحات و مفاهيم عديدة رافقته في مشواره، ذلك نتيجة لكون الرحلة مفتوحة الجهات، تتسع أحيانا لحد احتضان الكثير من المعارف و العلوم، ومن ثم يتعدد الدارسون، فيعترف كل واحد منهم من البحر الذي يريد، ومن بين المصطلحات نجد :

أ- الجغرافيا و تضاريس الوصف :

في هذا التقسيم نجد طغيان الوصف الجغرافي العلمي، الذي من أهدافه الأساسية توصيل المعلومات مباشرة إلى المقيمين الذين لم تتح لهم ممارسة أو خوض غمار الرحلة، وإنما اكتفوا بالموثوث والانتظار بكل شوق للأشخاص الذين سافروا ضربا في الأرض، منتظرين بكل شغف ما سيُذوُّ هؤلاء الرحالة بلغة عادية تبتعد عن الشعرية وأسرار الجمال، ويطلق عليها " ما يعرف بعلم المسالك والممالك، وقد يتخصص أكثر فيذكر المراحل التي يقطعها المسافر، فيطلق عليه علم البرود...¹¹ ، وأشهر ما ألف في هذا القسم " المسالك و الممالك " لابن حوقل المتوفى في السنة الرابعة للهجرة، و " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " للإدريسي المتوفى في السنة السادسة للهجرة .

ويتم في هذا القسم الاهتمام بالطرق والمراحل التي سلكها الرحالة تجوالا في الأرض، وتتبع مصادر المياه والآبار المنتشرة في ربوع المناطق التي زاروها، وما اجتمع حولها من مدن وقرى بما اشتملت عليه من سكان، حيث التشييد الرائع للعمران بما يتوافق مع كل منطقة جغرافية وطبوعها المختلفة، فللصحراء مثلا تتميز بطابع عمراني يختلف شديد الاختلاف عن الطابع العمراني الذي تتميز به منطقة البحر مثلا، وتختلف المنطقة العربية مثلا عن عمران المنطقة الإفريقية، وبهذا تأتي اللغة وهي الفاصل بين هذه العناصر كونها تشابه بين أقسام الرحلات الأخرى في تفاعلها مع الموضوع والذات، " فإذا اختفت العناصر الأدبية والذاتية أو ندرت، صنف النص على أنه جغرافيا وصفية، وإذا حاول الرحال أن يوازن بين الموضوع والذات فهو أدب جغرافي، أما إذا طغت العناصر الأدبية الذاتية فعمله يصنف على أنه أدب رحلة "¹² .

إنه من خلال ما سبق ذكره؛ يتجلى لنا أن العالم العربي والإسلامي قد استفاد من الجغرافيا الوصفية، وقد أبدع الرحالة العرب منذ القدم خلال تنقلاتهم المتتالية إلى الصين بعض الدول الآسيوية، ومن بعدها كانت فتوحاتهم لبلاد فارس التي أبهرت العربي في ذلك الوقت، ومن بعدها إلى أوروبا مروراً بإفريقيا، وبالتالي باختلاف المناطق وتمايز الطبوع المكونة لكل منطقة جغرافية من هذه المناطق كان له بالغ الأثر على الكتابة في فن أدب الرحلات، بل كان بمثابة الخرائط الجغرافية التي تساعد الإنسان على معرفة البلدان والدول، وكذا معرفة طبيعة كل منطقة وسحرها، ومن ثم فإن كل ما " كتبه الرحالة المسلمون من وصافين وجغرافيين كنز لا ينضب معينه، يضم الوثائق العظيمة الشأن في تاريخ الإنسانية، وفي استطاعة الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق، ومختلف ضروب المعرفة مطمئنا إلى نتائج بحثه إذا أقبل على دراسة هذه الوثائق ببصيرة نافذة، وبشيء من الحذر الذي يتطلبه النقد العلمي "¹³ ، وكانت هذه الوثائق بمثابة الأرشيف العالمي الذي استفاد منه علماء الجغرافيا فيما بعد.

ب- الأدب الجغرافي :

والأدب الجغرافي نجده قد انبثق من فن الرحلات التي قام بها الرحالة العرب منذ القدم، وقد يتوازي في هذا القسم من الأدب النهجان اللذان ينهجمها الإنسان في هذه الحياة، النهج الأدبي والنهج العلمي، غير إننا نلمح تقدم الأدب باعتباره الغالب على المؤلف، فالموضوع جغرافي لكن باب طرقة أدبي، تفرضه وجهة نظر الرحالة لأنه الأساس في هذه العملية، وهو موروث أدبي أساسي نظرا لتنوع صوره وأشكاله، فهو ذو طابع رسمي؛ وأطوارا أخرى نجده ذو طابع شعبي، وأحيانا أخرى يكتسي حلة الخيال الأسطوري الذي له علاقة كبيرة بعالم الخرافات التي انتقلت إلى الأدب العربي عن طريق الأساطير اليونانية وغيرها، وبالتالي فهو الأدب الذي يروي لنا الكثير من مغامرات البحر كقصص السندباد البحري، أو قصص عجائب المخلوقات، كلها ألقت لأجل إمتاع القراء، ولم يقصد مؤلفوها " جمع الخرافات بل التحدث بغرائب الموجودات، تبعا لطريقة كل منهم في النظر إلى هذه الغرائب، وفهمها ومقدار ما له من العلم بها ..."¹⁴، ومن هنا نستنتج أن أدب الرحلات؛ وبخاصة الأدب الجغرافي قد أفاد العربي من جهتين، الجهة الأولى من حيث عالم الكتابة الذي تميز بالإمتاع والمؤانسة، والجهة الثانية هي عالم الجغرافيا الذي أفاد معرفة المدن والبلدان، وكذا التضاريس وال عمران.

3- أدب الرحلات :

الأدب هنا هو نقطة الارتكاز في هذا النوع من الفنون ، على الرغم من وجود جوانب أخرى، وقد اعتاد المنظرون الاتكاء على مصطلح أدب الرحلات في كل كتابات الرحالة العرب الذين طافوا أجواء الكرة الأرضية يابسها ورطبها، مسجلين انطباعاتهم الشخصية حول الوقائع التي خاضوها أو مروا بها، وقد كان فضل السبق في هذا الأدب للمغاربة السباقين في هذا المجال للسياحة والأسفار، إذ ازدهر بالمغرب في القرن السادس الهجري " حيث امتزجت المراثيات المحسوسة بالانطباعات الشخصية الوجدانية، والوصف الدقيق لليوميات مع مشاق الطريق وأحوال السفر، وهي التي تمثل أدب الرحلات لدى العرب أصدق تميل، وتجسد الكثير من خصائص هذا الأدب "¹⁵، ومهما يكن من أمر فالرحلة قديمة قدم الإنسانية ذاتها، لأن الإنسان ميال بطبعه إلى التنقل وعدم الثبات، وبالتالي " فقد لعبت دورها في الكشف الجغرافي فقد يحصل معها أيضا الاتصال بين الشعوب واكتساب معرفة الواحد بالآخر خصوصا فيما يتعلق باللغة والتقاليد والعادات "¹⁶، إذن تصبح الرحلة فنا ويصبح الانتقال والتنقل أدبا لما يحدث من تلاقح بين المفهومين، وبالتالي عندما تكون اللغة العامل الوحيد لنقل أفكار الآخرين وإعادة توصيفها، فإن الرحلة تصبح واحدة من الفنون التي نعرف بها طبائع الآخرين وانطباعاتهم، وبها يستطيع الراوي خلق وسيلة لاتصال الشعوب المتفرقة في الأرض، وقطع كل الحدود التي كانت فاصلة بينهم.

4- أشكال الفضاء في الرحلة المغربية :

إن الفضاء من خلال ما تقدم؛ يعتبر منظومة ثقافية صادرة عن طريق قيام الرحالة بعملية تأويل للأشياء المرئية التي مر بها أثناء القيام بالاستكشاف، وباجتماع سياق المنظومة الثقافية، وعملية التأويل، فإن النص يكتسي بخصائص البنائية والجمالية، وقد قدم الفكر النقدي تصنيفات كثيرة للفضاء على وفق التنظيرات الحديثة التي أولت المكان اهتماما كبيرا، وقد أفرز متن الرحلة العربية بصفة عامة والمغربية بصفة خاصة العديد من الفضاءات، متكئا في ذلك على خطاب الرحلة الذي يجسد في أغلب الأحيان خطاب الحقيقة، وبالتالي نجده يؤول حين ذلك الأمكنة المشاهدة من قبل الرحالة، لكن بإعطائها دلالات أخرى :



أ- فضاء العتبة :

يستعمل هذا الفضاء عادة للتعبير عن مستويين من المستويات التي تكون بينها حدود فاصلة، كالحُدود الفاصلة بين اليابسة والماء - البر و البحر- " إنه فضاء عازل بين بنية و أخرى ، بين منظومة ثقافية ومنظومة ثقافية أخرى مغايرة ، والعزلة هنا لا تعني بالضرورة القطيعة بين المستويين المذكورين، بل إن العتبة أو الفضاء الفاصل عنصر يسهم في تفاعل المستويين"¹⁷.

إن المتأمل في اللون من الفنون الأدبية يجد أن " طنجة " المغربية تجسد هذا الفضاء بامتياز -فضاء العتبة- ، كونها منطقة من المناطق الهامة التي تعد فاصلا بين اليابسة والماء ، بين الوطن العربي والآخر الغربي ، " بين الحياة والموت ، والعنصر العازل بين هذه الثنائيات هو الماء الذي يحول ما قبله و بعده إلى صيغ جديدة، و للماء وظيفة الكتابة و المحو في آن واحد ، ذلك أن الرحلة قبل الرحلة أو قبل الوصول إلى الماء ، يصدر عن منظومته الثقافية التي تتعرض بمجرد الدخول إلى الماء لمؤشرات جديدة نلمسها بوضوح عند العودة"¹⁸، ومنذ القديم فالماء أو البحر له دلالة الموت والحياة عند العربي، فكم نجا منه الأولون بأعجوبة، وكم اخذ هذا الفضاء من أرواح لا تعد ولا تحصى، فركوب أهوال البحر مغامرة من قبل الرحالة الذين أخذوا على عاتقهم خوض غماره لاكتشاف المناطق البعيدة التي يحيط بها من جانب، كما أن للبحر فوائد عديدة سجلها الأولون خلال رحلتهم فيه، فهو الهاء المؤنس الذي تجري عليه السفينة لتعبر أقطارا لم تكن تخطر ببال أحد، كما كان منذ القديم مصدر رزق للكثير من الخلائق سواء تعلق الأمر بكائناته الحيوانية، أو درره التي يخبئها في الأعماق، وعلى كل فإن البحر يبقى بين اخذ ورد لأنه مرهون بزمان ركوبه، كما " أن الزمن الذي يؤطر فضاء العتبة زمن متأزم فهو زمن مشحون بالتوتر والقلق والاضطراب وطرح الأسئلة المصيرية"¹⁹.

تصبح المنظومة التي يقوم عليها فضاء العتبة وبخاصة ما تعلق بالبحر منظومة تجارب بامتياز، ومن ثم فهي نابعة " من إعادة تشكيل أو صياغة العالم بعد المرور بتجربة البحر أو الماء ، و على هذا الأساس اختلف الرحالة البري عن الرحالة البحري ، بالرغم من اشتراكهما في عناصر عديدة من التحول المادي و المعنوي قبل الرحلة ، أو أثناءها و بعدها"²⁰ ، و بهذا فهدف الرحالة تجاوز المفارقة التي ربطت بين الماضي و الحاضر بإعادة صوغ العتبة صياغة يستطيع الفضاء أن يتحول إلى طبقات سردية " تدخل فيها المصدر التاريخي بالحدث المباشر ، و الموصوف اللحظي بالدلالة الحضارية ، والبنية اللغوية بالاستكشاف..."²¹.

ب- الفضاء المتحرك :

إن الفضاء في هذا القسم يقوم على عنصر مهم هو الطريق البري و البحري " و القاسم المشترك بين الفضاءين يقوم على الحركة ، حتى و إن كان المكان ساكنا ، ما دامت الحركة تنسحب عن المكان من جهة ، و على وعي الرحالة من جهة أخرى"²² ، ومن هنا يصبح المكان أسيرا لدى الرحلة خاضع لسيطرتها ، و هي بدورها خاضعة للعوامل المتحركة في السفر الذي يعمل على تقسيم مراحلها و محطاتها بالأدوات المستوجبة لذلك .



ت- الفضاء البري المتحرك :

تفرض الطريق هيمنها في هذا القسم على حركية الفضاء ، و بالتالي فطبيعة الطريق تفرض نوعية الأحداث المرتبطة بمسار الرحلة العام ، و تحدد من جهة أخرى عنصر الهوية و الانتماء ، فالرحالة تتعدد مشاربهم ، و تختلف مناطق الانتماء التي ينتمون إليها ، غير أن الرحلة التي تربط المغربي بالمشركي في رحلة الحج مثلاً يتجاوز فيها الرحالة >> حركة الانتقال ليتحول إلى بؤرة سردية تعدد فيها الأصوات و اللغات و الحكايات...<<²³ ، و بالتالي تصبح الرحلة بوسائلها المعهودة - الركوب- نوعاً من البناء المتلاحم ، تتكاثف فيه القيم الكثيرة للرحالة ، الذي بما يع ربط الصلات مع المجال الوجداني من حيث عامل الدين ، و عناصر الثقافة التي ينتمي إليهما .

إن حركية الفضاء هنا لا تقتصر على تلك الأمكنة المعروفة و المتداولة ، بل تتعداها إلى ما سوى ذلك ، و تمتد إلى >> خلق مزيج بين المرئي و غير المرئي ، بين الواقعي و المتخيل ، بين الملموس و الأسطوري ، مستندا في ذلك إلى ذخيرته من المرويات الحكائية الشفهية و المكتوبة...<<²⁴ .

ث- الفضاء البحري المتحرك :

تقوم حركية الفضاء البري على طبيعة الوسائل المساعدة على ولوج مساحات شاسعة من الطبيعة الواسعة ، غير أن حركية الفضاء في هذا القسم تعود " إلى مكوناته في حد ذاتها ، و هذه المكونات بطبيعتها مشدودة إلى الحركة ، هذا على المستوى الحامل ، أما على المستوى المحمول ، سواء كان سفينة أو فلكا فإنه يدعم هذه الحركة بحركة مضاعفة و هي حركية الفلك وسط ذلك المحيط اللامتناهي من الماء "25 .

إن هذا الفضاء تعثره مخاطر جمة لا توجد في الفضاء البري ، ذلك كون ركوب البحر من المخاطر العظيمة التي يتعرض لها الإنسان ، فيحاول بذلك أنسنة المكان بالعودة عن طريق الخيال إلى التفكير في المنظومة الثقافية الرمزية ، التي يحاول من خلالها التخفيف من حدة التوتر الذي يشعر به المسافر خاصة إذا كانت الرحلة شتوية تتلاطم فيها الأمواج و تشتد فيها العواصف و الرياح ، و بالتالي يصبح هذا الفضاء فضاء وحشة لمرور الرحالة بلحظات حرجة لما تتعرض له السفينة من صدمات ، و يصبح خياله مشدوداً إلى الخارج الذي أصبحت ملاحه محددة لما له من مجاهيل منتظرة .

ج- الفضاء الغريب :

إن الفضاء الغريب متعلق في كل الأحوال بالآخر ، و هو الأجنبي الذي تختلف تركيبته الاجتماعية ، و مرجعيته عن الرحالة العربي ، و من ثم يتجسد الغريب في عدة نقاط أهمها :

أ- اختلاف عادات و تقاليد الرحالة العربي عن تقاليد الأجنبي ، و " مخالفته للمألوف أو المتعارف عليه من جهة ، و معارضته للمعتقد الديني و الثقافي للرحالة من جهة ثانية "26 .



ب- بروز مستويات تتخطى الغريب إلى مستويات العجائية التي تصبح فيما بعد صعبة التصديق و لو اتضحت الرؤية البصرية ، و لا " يقدم الفضاء الغريب في الرحلة إلا من خلال عين الرائي ، أي من خلال ما نعرفه و ما لا نعرفه ، و أثناء عملية التقدم بمارس الرحالة التفصيل و التجزيء ، و الحرص على المقارنة بين المرئي بالعين و المرئي بالذاكرة بين مظاهر الآخر ، و مظاهر الأنا "27 .

ج- يتعرض الرحالة لضغوطات نفسية كثيرة سببها الاصطدام المباشر بالمظاهر الغريبة و العجيبة ، لذلك فإنه " يحاول إجمال ما رآه مستخدما الإشارة الدالة على عجزه بأسلوب حسن التخلص المشدود إلى الصيغ البلاغية الشائعة "28 .

د - يتخطى الرحالة جوانب الانبهار ، لينقل الصور الحية إلى موطنه الأم ، و ما وقعت عليه عيناه ، ليقدمها إلى بني جلدته في قالب جديد بعيد عن السلبية ، و الإخلال بالقيم و الأخلاق و الثقافة التي ترعرع عليها .

ح- الفضاء الأليف :

يتعلق الإنسان في هذه الحياة بأماكن و أشياء و أشخاص صادفهم ، أو كانت له معهم علاقة من قريب أو من بعيد ، و هذا التعلق تربطه بالذاكرة الإنسانية تلك العلاقة الحميمة بينه و بينهم ، لأن الأشياء الجميلة تترك في نفس صاحبها الجمال و التعلق ، و بالتالي فالرحالة العربي لا تخلو صفات التعلق بالفضاء الذي صادفه لأول مرة ، خاصة إذا كان الفضاء أليفا يحقق صفة الألفة ، فالمكان الأليف حاضر في حله و ترحاله " خاصة أثناء توديع آخر نقطة من البلد الأصل ، و ما يثيره ذلك من أشجان عبّر عنها الرحالة شعرا و نثرا ، "29 ، فالمكان الأليف يطرق ذاكرة الرحالة أثناء الرحلة ، و أثناء مروره بمناطق غريبة تثير فيه الإحساس بالغربة و الوحشة ، لأن الفضاء المرتحل إليه لا يخلو من هذ الصفات التي تصادف الإنسان في رحلة البحث و الاستكشاف ، هنا يتم الاسترسال عن طريق الذاكرة التي تحرك وتثير الإحساس الوجداني بقيم الفضاء الأليف الذي بقي منسوخا بالذاكرة .

إن الارتباط بالفضاء الأليف له علاقة وطيدة بالروابط الوجدانية ، فضلا على كونه عنصرا من عناصر الشخصية الإنسانية ، بل إنه مكون من مكونات الهوية التي تجعل الولوع يمثل هذه الفضاءات ولوعا لا يبغي به الرحالة بديلا عنه ، لأن سطوة الفضاء الغريب الموحش تدفع به إلى ذلك ، فالإحساس بالمكان مرتبط بنوعية علاقته بشخصية الرحالة الذي يصفه ، وهو يتعلق ويتوغل إلى شعوره ورؤاه ، وبالتالي فتحديد المكان يكون مقرونا بعاطفة زمنية معينة مر بها الرحالة ، و هنا يبرز دور الوضع الجسدي للرؤية في استيعاب واحتواء الفضاء ، فالتجربة المكانية هي التي تحدد المكان وأبعاده ، لأن جميع الظواهر الحسية والشعورية والنفسية هي من تدفعنا للاتصاق بالأماكن وألفتها ، و تدفعنا لكره آخر و النفور منه ، و يكون ذلك بوساطة استحضار الذاكرة لنوعية التجارب التي مر بها الإنسان في الرحلة و أمكانها العديدة ، التي تترك فيه مشاعر الخوف والأمن والطمأنينة والإحساسات الأخرى .

خاتمة:

وصفوة القول فإن هذه الورقة البحثية هي محاولة متواضعة تتناول الفضاء الجغرافي في متن من المتون المغمورة، وهو ما يعرف بأدب الرحلات وما يتعلق بالإسفار، ومن ثم يمكننا ان نتوصل من خلال هذه القراءة إلى النتائج الآتية:

- أن أدب الرحلة نسق من أنساق الكتابة العربية عامة منذ القلم.
- نستنتج مما سبق أن للمغاربة رحلات عديدة دونها المؤرخون تشهد بترحالهم عبر مشارق الأرض ومغاربها.
- إن الرحلة مجال للتعرف إلى العالم البعيد جدا سواء بالمشاهدة أو الاستماع.
- نستنتج أن الرحلة وأدبها احتل موقعا مركزيا داخل أروقة الثقافة العربية، حيث حفلت مدوناتهم بالصور الحية عن الأماكن التي زاروها في أنحاء المعمورة.
- لقد ظهرت فضاءات جديدة لم تكن تخطر ببال أحد في هذا الفن، وقد أفرزت الرحلة المغاربية في القرن التاسع عشر العديد من الفضاءات استنادا إلى خطاب الرحلة، بالرغم من تجسيده لخطاب الحقيقة، فهو يؤول في الوقت ذاته الأمكنة الموصفة لكن بدلالات مختلفة. قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد حسن: الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1990.
- 2- حسن محمد فهميم: أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.
- 3- حسين فوزي: حديث السندباد القلم، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ط1، 1977.
- 4- حميد حميداني: بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2000.
- 5- عبد الرحيم مودن: الرحلة المغربية، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006.
- 6- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، 1987.
- 7- زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، ط1، 1981.
- 8- صلاح الدين الشامي: الرحلة العربية في المحيط الهندي، و دورها في خدمة المعرفة الجغرافية، عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد 13، العدد 4، 1983.



9- محمد رداوي : الرحلات المغربية و الإسلامية و أعلامها في الأدب العربي القديم والمعاصر (دراسة نصوصية) ، مكتبة

الملك فهد ، مطابع الفرزدق ، الرياض ، ط1، 1995.

10- منيب محمد البوري : الفضاء الروائي في الغربية، الإطار والدلالة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (د .

ت).

11- ميشيل رتشاردسن : أدب الرحلات و السريالية ، و علم الإنسان ، تر أسامة عبد الحليم زكي ، مجلة ديوجين

" مصباح الفكر " ، المجلس الدولي للفلسفة و العلوم الإنسانية ، اليونسكو، العدد 96، (د ت) .

12- ناصر عبد الرزاق المواي : الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، أدب الرحلات 1 ، دار

النشر للجامعات المصرية ، مكتبة الوفاء ، ط1، 995.

13- يوري لوتمان : مشكلة المكان الفني ، تر سيزا قاسم ، مجلة ألف باء ، العدد 6، 1986.

revue.bidayat@gmail.com

¹ - عبد الرحيم مودن : الرحلة المغربية ، دار السويدي للنشر و التوزيع ، أبو ظبي ، ط1، 2006. ص 76.

² - المرجع السابق: ص 353.

³ - المرجع نفسه: ص 353.

⁴ - غاستون باشلار ، جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، 1987، ص45.

⁵ - حميد لحميداني : بنية النص السردي ، . المركز الثقافي العربي . ط3. 2000. ص 63.

⁶ - يوري لوتمان : مشكلة المكان الفني ، تر سيزا قاسم ، مجلة ألف باء ، العدد 6، 1986، ص 81.

⁷ - أحمد حسن: الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1990، ص 173.

⁸ - عبد الرحيم مودن : الرحلة المغربية ، 353.

⁹ - المرجع نفسه : ص 354.



- ¹⁰ - صلاح الدين الشامي : الرحلة العربية في المحيط الهندي ، و دورها في خدمة المعرفة الجغرافية ، عالم الفكر ، وزارة الإعلام ، الكويت ، المجلد 13 ، العدد 4 ، 1983 ، ص 14.
- ¹¹ - ميشيل رتشاردسن : أدب الرحلات و السريالية ، و علم الإنسان ، تر أسامة عبد الحليم زكي ، مجلة ديوجين " مصباح الفكر " ، المجلس الدولي للفلسفة و العلوم الإنسانية ، اليونيسكو ، العدد 96 ، (د ت) ، ص 30.
- ¹² - ناصر عبد الرزاق الموافي : الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، أدب الرحلات 1 ، دار النشر للجامعات المصرية ، مكتبة الوفاء ، ط 1 ، 995 ، ص 35.
- ¹³ - زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط 1 ، 1981 ، ص 179.
- ¹⁴ - حسين فوزي : حديث السندباد القلسم ، دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب المصري ، ط 1 ، 1977 ، ص 34.
- ¹⁵ - محمد رداوي : الرحلات المغربية و الإسلامية و أعلامها في الأدب العربي القلسم والمعاصر (دراسة نصوصية) ، مكتبة الملك فهد ، مطابع الفرزدق ، الرياض ، ط 1 ، 1995 ، ص 19-20.
- ¹⁶ - حسن محمد فهميم : أدب الرحلات ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب ، الكويت ، 1989 ، ص 18.
- ¹⁷ - عبد الرحيم مودن : الرحلة المغربية ، 362.
- ¹⁸ - المرجع السابق : الصفحة نفسها .
- ¹⁹ - منيب محمد البوريحي : الفضاء الروائي في الغربة ، الإطار والدلالة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد (د . ت) ص 22-23 .
- ²⁰ - عبد الرحيم مودن : الرحلة المغربية ، 362.
- ²¹ - المرجع نفسه : ص 362.
- ²² - المرجع السابق : ص 364.
- ²³ - المرجع نفسه : ص 365.
- ²⁴ - المرجع نفسه : ص 367.
- ²⁵ - المرجع السابق : ص 367.
- ²⁶ - المرجع نفسه : ص 385.
- ²⁷ - المرجع السابق : ص 385.
- ²⁸ - المرجع نفسه : ص 385 .
- ²⁹ - المرجع نفسه : ص 388.